## المحاضرة العاشرة: إلحاق تونس بالحكم العثماني ١٥٧٤م

### ١- لمحة تاريخية حول تونس في العهد الحفصي:

**تونس الحفصية :**

ينسب الحفصيون إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني وهم من أتباع ابن تومرت . وقبيلة هنتانة هي قبيلة بربرية عظيمة تلتحق بالمصامدة التي هي من أكبر قبائل المغرب الأقصى . وكان أبو حفص من المقربين من زعيم الموحدين (ابن تومرت) وقد تولى عدة إدارات في عهده الى وفاته سنة ١١٧٥م ، وفي عهد الخليفة الموحدي محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف ، عقد ولاية تونس لأبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص سنة ١٢٠٧م ، وتمكن هذا الأخير من فرص الأمن والاستقرار في نطاق ولايته اذ تمكن من هزم الثائر علي بن غاني بنواحي طرابلس الغرب ، ثم خلفه في الولاية ابنه عبد الرحمان سنة ١٢٢١م ، ثم تولى من بعده أبو زكرياء يحيى الحفصي ١٢٢٩م، فكانت أوضاع الدولة الموحدية قد وصلت الى درجة كبيرة من الضعف ، فانتهز أبو زكرياء الفرصة وأعلن استقلاله بولاية تونس والقيروان عن دولة الموحدين . وهو بذلك يعتبر مؤسس الدولة الحفصية بتونس . وتواصل توالي الخلفاء الحفصيون الحكم في تونس الى مطلع القرن ١٦م ، حيث وصلت لدرجة كبيرة من الضعف وكانت أنظار الإمبراطور شارل الخامس قد أخذت تتجه إليه.

### ٢- ظهور العثمانيين وتحرير تونس من الاسبان

وكما سبق وذكرنا ظهور الإخوة البحارة خير الدين وعروج ، كقوة بحرية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، واتفاقها مع السلطان الحفصي محمد بن الحسن بمنحها جزيرة جربة ، ليتخذا منها قاعدة لأسطولهما مقابل خمس الغنائم ، ثم سمح لهم باستخدام ميناء حلق الوادي وتمكنا من تقديم المساعدة للأندلسيين المورسكيين الفارين ، مما لفت الأنظار وزاد عدد أتباعهم بنجاح حملاتهم البحرية

على السواحل الاسبانية ، ثم فتح مدينة جيجل عام ١٥١٢ واتخاذها قاعدة للحملات ضد الاسبان .

وفي الجزائر، وبعدما أصبح خير الدين حاكمًا على مدينة الجزائر رأى أن التواجد الإسباني يمثل تهديد دائم للجزائر فشن حملة بحرية استولى في طريقه على بنزرت ودخل تونس عام ١٥٣٤م نجحت في تحرير العاصمة إلا أن سلطانها مولاي الحسن فر إلى الجنوب واحتمى بقبائلها ثم التجأ إلى الإمبراطور الاسباني شارل الخامس يطالبهم بالمساعدة ضد خير الدين، فلبّى طلبه وقاد حملة قوامها ٤٠٠ سفينة و٣٠ ألف مقاتل متجها إلى تونس في ٣٠ ماي ١٥٣٥ م ، ونزل بقرطاج وحلق الوادي ، ولم تدم مقاومة خير الدين طويلا فانسحب إلى الجزائر ، واستعاد مولاي الحسن عرشه من جديد ، وفي المقابل دخل تحت حماية الاسبان بمقتضى معاهدة ٦ أوت ١٥٣٥م ، والتي جاء فيه :

- يسمح للاسبان بالإقامة في جميع أنحاء تونس وإقامة طقوسهم الدينية دون اعتراض من السلطة الحفصية.
- تنازل الأمير الحفصي للاسبان عن مدن عنابة _بنزرت_حلق الوادي_ وإقامة حاميات بهم.
- تسريح الأسرى المسيحيين وحرية التجارة لفائدة الاسبان .
- يدفع الأمير الحفصي سنويا ١٢ ألف قطعة ذهبية للاسبان.

ولكن فعلته هذه اعتبرها الشعب التونسي خيانة مما فجرّ نقمة شعبية كادت تؤدي بحياته ، وظلت تونس منذ ذلك الوقت موضع صراع بين التونسيين والاسبان والعثمانيين وكان يقود المعارك من الجانب التركي قراصنة من بلاد المشرق نذكر من بينهم الرايس درغوث الشهير بدهائه وبانتصاراته العديدة على المسيحيين . وقد استطاع أن يستقر في طرابلس الغرب والزحف نحو تونس انطلاقا من الجنوب ، حيث سيطر على مدينة قفصة سنة ١٥٥٣م ، ثم القيروان سنة ١٥٥٧، في حين تمركزت القوات العثمانية انطلاقا من الجزائر للاستيلاء على تونس سنة ١٥٦٩م ، وطرد منها السلطان الحفصي ولكن الاسبان

اغتنموا فرصة انتصاراتهم في معركة ليبانت عام ١٥٧١م على الأسطول العثماني فاستولوا على تونس من جديد في صيف ١٥٧٣م، بقيادة شقيق ملك اسبانيا دان جوان النمساوي وأقاموا فيها حكما مشتركا اسبانيا حفصيا ودام الوضع مدة ١٠ أشهر حتى قدوم الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا الذي تمكن من استرجاع تونس وحلق الوادي في سبتمبر ١٥٧٤م.

وفي هذا الصدد يقول ابن أبي الضياف:" ... لما استقرت قدمه بالحاضرة وتلافى ما بقي من رمقها وأعادها الله دار إسلام على يده وقلع أوتاد الدولة الحفصية من مراكزها، وصفا له جو الاستيلاء، شرع في سدّ ما نثلم من السياج، وترتيب الأمور وتألف الناس، فرتب قوانين يرجع إليها باعتبار الوقت والحال في الأمور الضرورية...".

**٣- مراحل الحكم العثماني في تونس :**

**٣-١- مرحلة التبعية لحاكم الجزائر ١٥٧٤-١٥٩١**

لما أصبحت تونس ايالة عثمانية ألحقها سنان باشا في بداية الأمر في تنظيم وتسيير شؤونها بإيالة الجزائر ، ثم استحدث لها ديوانا يتكون من ضباط سامين من البولكباشية ، كما أشرك فيه بعض من أعيان البلاد وترك حوالي ٤٠٠ جندي انكشاري مهمتهم حماية البلاد التونسية من الأخطار الخارجية وإقرار السلم والأمن الداخلي ، حيث عين على كل ١٠٠ جندي ضابط يلقب بالداي ، ويرأس كل هؤلاء الجند ضابط سامي برتبة آغا أما جباية الضرائب فكلف بها الباي وفي هذا الخصوص ما يؤكده ابن أبي الضياف في كتابه " إتحاف أهل الزمان" إذ يقول : " ولما استقر قدمه بالحاضرة "رتب سنان باشا قوانين يرجع إليها باعتبار الوقت والحال في الأمور الضرورية وأبقى دارا من الينجرية عددها أِربعة آلاف مقاتل ... وجعل كل مائة منهم أميرا يسمى الداي وجعل أمير لواء لضبط أوطان المملكة واستخلاص جبايتها ويسمى الباي مرادف لأمير . وهذا ما يبين بأن سنان باشا قبل أن يغادر

تونس نهائيا ، قد أرسى بها جملة من المؤسسات السياسية والعسكرية والقضائية والرموز السياسية التي تؤمن كلها تبعية الايالة للباب العالي ، ومن تلك الرموز التبعية آنذاك في الدعاء للسلطان العثماني في خطبة صلاة الجمعة وضرب السكة باسم السلطان ورفع الراية العثمانية.

استحدث سنان باشا في تونس بعد تحريرها من الإسباني نظامًا خاصًا بها بحيث أصبحت تابعة مباشرة لحاكم الجزائر على أن يسيرها باسمه إداريًا حاكم مدني يحمل لقب" الباشا أو الداي " يعينه السلطان لمدة وجيزة حتى لا يستأثر بالايالة لنفسه، ويساعده الإطارات التالية:

أ- **الديوان العام:** ويضم كبار الضباط والأعيان، بالإضافة إلى الباي" مدير الشؤون المالية"

**ب-الأغا:** وهو قائد الفرقة العسكرية الانكشارية، يعين من قبل السلطان ثم أصبح يعين من طرف الضباط السامون (البولكباشية) لمدة ٦ أشهر ثم يعزل ويسمى بمعزول آغا .

**ج- الدايات:** وهم مجموعة الضباط التابعين للأغا.

**د-القابودان:** قائد السلاح البحري .

وقد استطاعت الفئة الحاكمة التركية المحلية وخلال سنوات قليلة أن تخلق لنفوذها قاعدة مادية كافية نسبيا لكي تستقل بالايالة لصالحها ، وقد تجسد ذلك في عدم دفع إتاوة سنوية للباب العالي وفي حرية التصرف الداخلي والخارجي ، وانجر عنه أيضا أتباع سياسة الغلظة والتسلط على الأهالي وحتى على الجنود الانكشاريين البسطاء والتعدي على الأرزاق والذي يجبى من الرعايا يدخل جيوب الذين يجبونه ولا يعطى للخزينة ، والانكشاريون والموظفون يغتصبون أراضي الأهالي فيزرعونها ويحصدونها ولا يدفعوا أعشارا للدولة .

**٣-٢- فترة حكم الدايات ١٥٩١-١٦٢٣:**

وقد استمر هذا النوع من الإدارة العثمانية المرتبطة بالجزائر إلى غاية يوم الجمعة ١٨ أكتوبر ١٥٩١ وفي هذا يقول المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف:".. واستمرّ هذا الترتيب بتونس على حالتها المطمئنة إلى أن فتك الجند بكبار الديوان وتعرف بـ" واقعة البلكباشية .."، بإيعاز من الضباط الصغار الملقبين بالدايات .

عين قادة الانقلاب أحد منهم ، ويدعى موسى داي ١٥٩١-١٥٩٣ ، ثم جاء إبراهيم داي ١٥٩٣ -١٥٩٤، بينما تحقق الانفراد بالحكم على يد عثمان داي بدءا من سنة ١٥٩٨_١٦١٠ ، ثم يوسف داي ١٦١٠_١٦٣٧ م ، ثم مراد داي الجنوازي ١٦٣٧_١٦٤٠ ، ثم احمد خوجة داي ١٦٤٠_١٦٤٧م . وما يطلق عليه بعهد الدايات الحاكمة بزمام الأمور فعلا هم هؤلاء الدايات الأربعة.

وكانت مؤسسة الداي في عهدهم صاحب السيادة الحقيقية ، أما الدايات الذين سيأتون لاحقا فهم أغلب الحالات تحت سيطرة البايات المراديين ثم الحسينيين ، ولم تنقرض مؤسسة الدايات إلا في منتصف القرن ١٩م ، كما أصبحت مؤسسة الديوان في عهدهم ذات مكانة ثانوية حتى أن أحمد خوجة داي فكر في إلغائها نهائيا ، وسيتقلص نفوذها أكثر بداية من عهد الباي حسين بن علي ١٧٠٥_١٧٣٥ (مؤسس حكم العائلة الحسينية في تونس ) .

ومن أشهر أعمال هؤلاء الدايات نذكر أن في عهد الداي عثمان ١٥٩٨_١٦١٠، قد اهتم بتعمير البلاد فأصدر القوانين المنظمة لشؤون الرعية ، كما عمل على تنشيط المبادلات الصحراوية نحو غدامس ، كما ساعد مهاجري الأندلس على اقتطاع أراضي لهم ومنحهم الأموال فقامت عدة مدن جديدة احتضنتهم وعمروها .

أما في عهد يوسف داي فقد سار على نفس درب سابقه ، فقد بنى جامع ومدرسة اليوسفية واسترجع جربة من طرابلس عام ١٦١٣ وتشجيع التجار الأوربيين في البلاد كما رسم الحدود مع الجزائر بموجب معاهدة ١٦١٤ الذي حددت فيها المجال الجغرافي وهي كالتالي : جبال الحظ وقلوب الثيران والايحيرلش ووادي ملاق

ووادي سراط حدا فاصلا بين الايالتين فما هو شرقيه يكون لوجق تونس وما هو بغربيه يكون لوجق الجزائر ، ثم كانت معاهدة ١٦٢٨ لإقرار القاعدة البشرية .

**٣-٣- فترة حكم البايات المراديين ١٦٢٩-١٧٠٢م :**

اقترن ظهور مؤسسة الباي على يد حمودة باشا المرادي (ابن مراد باي) في منتصف القرن السابع عشر بقيادة المحلة ، وقد أسندت هذه المهمة في بادئ الأمر إلى رمضان باي الذي توفي عام ١٦١٣ ، ثم أسندت إلى أحد مماليكه وهو القائد مراد باي كورسو الذي احتكر المهمة إلى غاية سنة ١٦٣١ تاريخ وفاته ، والشخص الذي تسند له هذه المهمة يصبح هو المشرف الفعلي على شؤون ايالة تونس حيث مرت هذه العملية عبر فترات زمنية ، إذ اختص الباي في بادئ الأمر بإدارة الشؤون دواخل البلاد بصورة عامة ، وتقاسم الباي والداي مناطق النفوذ في الايالة . فكانت المدن التي تتركز فيها حاميات عسكرية ومؤسسات الديوان من اختصاص الداي ، ثم تقلص مجال نفوذه واقتصر على مدينة تونس وتفوق تدريجيا نفوذ مؤسسة الباي ، حيث تمكن البايات من إخضاع القبائل الطرفية والمحاربة والقوية من أمثال قبلية أولاد شنوف في الجهة الجنوبية الغربية وقبيلة أولاد سعيد في الجهة الجنوبية الشرقية (بواحة الحامة).

ويجمع أغلب المؤرخين على أن تحول النفوذ من يد الداي إلى الباي كان ابتداء من عام ١٦٢٩ ، وقد نجح مراد باي ١٦١٣_١٦٣١م ، في أن يورث الأمر "المهمة " من بعده لأبنائه ، فأسس بذلك أسرة حاكمة في تونس وهي الأسرة المرادية حيث جاء من بعده ابنه حمودة باشا ١٦٣١_١٦٦٦ م، ثم مراد الثاني ١٦٦٦_١٦٧٥.

وقد أدخل المراديون جملة من الإصلاحات والتنظيمات ، فعلى المستوى العسكري أنشئوا جيشا خاصا بهم يعتمد على عناصر أهلية ، إذ استقدموا عسكر زواوة من منطقة القبائل البربرية بالجزائر ، وفرسان الصبايحية من القبائل المخزنية أما بخصوص أفراد الجيش التركي فهو يتبع الداي .

ومن الناحية المالية فقد أنشئوا بيت خزندار لجباية الضرائب ، وهي مؤسسة موازية لبيت المال التي تحت إشراف مؤسس الديوان وبهذا العمل تمكن المراديون من التخلص من الاحتكارات الجبائية التي تتقاسمها العديد من القبائل ، وعلى سبيل المثال محلة الزاوية القشاشية (نسبة إلى سيدي أبي الغيث القشاشي) والقبائل القوية المحاربة لقبيلة دريد بمنطقة الجريد ..، وأنشئوا المؤسسات الخيرية والتعليمية والدينية.

وقد سبق وأنشأ حمودة باشا أيضا سانية باردو (قصر الباردو) الذي جعل منه مركز الإدارة المرادية بعيدا عن القصبة في تونس المدينة حيث مركز سلطة الداي.

**الصراع على السلطة بين أبناء الأسرة المرادية ونهاية حكمهم :**

بدأت الأزمة السياسية على السلطة في تونس حينما حاول الجيش الانكشاري بقيادة الداي الحاج علي اللاز في سنة ١٦٧٣ م ، إلغاء الحكم المرادي واستعادة مؤسسة الداي زمام النفوذ والسلطة الكاملة منها ، ولكن المراديون تمكنوا من القضاء على هذه الانتفاضة وبشدة ، ولكن سرعان ما نشبت أزمة ثانية ، فيما بين أولاد مراد الثاني المتوفي عام ١٦٧٥ ، وهذه أزمة التنافس على السلطة كانت بين كل من محمد باي وعمه محمد الحفصي بدعم من علي باي ابن مراد الثاني . واحتكم المتخاصمون إلى الديوان الذي كان لصالح محمد الحفصي ١٥ أكتوبر ١٦٧٣ ، ولكن لم يرض محمد باي بهذا القرار واستعاد السلطان بقوة السيف ١٦ديسمبر ١٦٧٥. وبقي التنافس فيما بينهم وتدخل دايات الجزائر في سياق الصراع ، إلى أن تمكن محمد باي بالإنفراد عام ١٦٨٦ والى غاية ١٦٩٦ ، ثم خلفه أخوه رمضان ثم مراد الثالث مارس ١٦٩٩ ، ولكن هزيمته أمام أتراك الجزائر بقسنطينة في اكتوبر ١٧٠١ ، مما عجل بمقتله على يد إبراهيم الشريف في ٩ جوان ١٧٠٢ وبذلك ينتهي حكم الأسرة المرادية في تونس .

باشر إبراهيم الشريف السلطة في تونس وحمل لقب الداي والباشا معا ودخل في صراع مع داي الجزائر جويلية ١٧٠٥ ، فوقع في الأسر ، وتواصلت هجومات أتراك

الجزائر على تونس ووصلوا مشارق مدينة تونس ، فتصدت المقاومة التونسية لهم بقيادة حسين بن علي الذي أجبرهم على التراجع والتقهقر .

إن تلك الشجاعة والبسالة في المقاومة التي أظهرهما حسين بن علي لرد عدوان أتراك الجزائر على مدينة تونس أكسبه شعبية عظيمة ، رُفِع بهما إلى منصب باي تونس ، وتمكن تدريجيا من القضاء على منافسيه ، من الداي محمد خوجة الأصفر ، وإبراهيم الشريف الذي عاد من أسره في ٥ نوفمبر ١٧٠٥، لتبدأ مرحلة جديد في تاريخ تونس تحت حكم الأسرة الحسينية .